

القرآن الكريم وفضل العلم



يكفي العلم جلاله وفخراً أن سبحانه قد جعله السبب الكليّ لخلق هذا العالم العلويّ والسفليّ، قال الله تعالى في مُحكم الكتاب: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَالِمُ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدُّو أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) (الطلاق/ 12).

وجعل سبحانه العلم أعلى شرف، وأول منة امتنّ بها على ابن آدم بعد خلقه وإبرازه من ظلمة العدم إلى ضياء الوجود، فقال سبحانه في أول سورة أنزلها على نبيّه محمد (ص): (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَاقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (العلق/ 1-5).

فتأمّل كيف افتتح كتابه الكريم بنعمة الإيجاد، ثم أردفها بنعمة العلم، فلو كان ثمة منة أو نعمة بعد نعمة الإيجاد هي أعلى من العلم لما خصّه الله تعالى بذلك، وصدّر به نور الهداية.

وقد ذكر في تفسير هذه الآية المذكورة في صدر السورة اشتغال بعضها على خلق الإنسان من علق، وفي بعضها تعليمه ما لم يعلم؛ ليحصل النظم البديع في ترتيب آياته: إنّه تعالى ذكر أوّل حال الإنسان، وهو كونه علقه، مع أنّها أخص الأشياء، وآخر أمره وهو صيرورته عالماً وهو مقام شريف، وليس هذا الكمال إلا من قدرته تعالى، وتنبيهه على أن العلم أشرف الصفات، ومن هنا حصر سبحانه الخشية في العلماء، فقال: (إِنَّ زَمَّامًا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (فاطر/ 28).

وهذه الآية فيها وجوه من الدلائل على فضل العلم:

منها: دلالتها على أن العلماء هم أهل الجذّة؛ وذلك لأنّ العلماء من أهل الخشية، ومن كان من أهل الخشية كان من أهل الجذّة، فالعلماء من أهل الجنة، فبيان أن العلماء من أهل الخشية قوله تعالى: (إِنَّ زَمَّامًا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ).

وبيان أن أهل الخشية من أهل الجنة قوله تعالى: (جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) (البقرة / 8).

وقرن سبحانه أولي العلم بنفسه، وملائكته، فقال: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ) (آل عمران / 18).

وزاد في إكرامهم على ذلك مع الاقتران المذكور، بقوله تعالى: (وَمَا يَعْزِمُ أَنَّ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) (آل عمران / 7).

ويقوله تعالى: (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيِّنَاتٍ بِيَدِيَّ وَبَيِّنَاتٍ كُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) (الرعد / 43).

وقال تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالسَّادِّينَ أَتَوْا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) (المجادلة / 11).

وقال تعالى مخاطباً لنبيه، آمراً له مع ما آتاه من العلم والحكمة: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) (طه / 114).

المصدر: كتاب 30 أدباً المتعلم